العرم

ابن الجبل

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

849.995
C811iA
c.1

ابن الجبل

وضعه بالافرنسية شعراً

شارل القرم

ترجمه الى العربية شعراً طليقاً ، متحرياً فيه الامانة

في المعنى والحرية في المبنى

الاب اسطفان فرحات

مهدى الى الشاعر شارل القرم ، والى المولعين بالشعر السامي

•

مطابع صادر ريحاني – بيروت ، لبنان – تلفون ٦٢–٦٨

مقدمة

عندما ترجمتُ هذا الكتيّب ، وعزمت على اصداره ، لم اتردّد في ان اصدّره بمقدمة الشاعر هنري حكيم الذي اهتم بجمعه في الاصل الفرنسي، لان بها كفايةً للتنويه بمعنى نفسيّة القرم ، وبمعنى قصائده ، وعنوانه (ابن الجبل) فقال السيد حكيم :

« ما كاد الجبل الملهم يُنشر ، وهو وافر الاعداد حتى أوشك ان ينفد ، وما هو أن نال جائزة (ادغاربو) العالمية في الشعر ، حتى أصبح نادر الوجود، حتى لدى مؤلفه الذي،عبثاً ، ألحت عليه يؤيدني أصحاب مكاتب بيروت ، وبعض الفرنسيين الذين أحبوا تجديد طبع الكتاب ، ليسمح باعادة طبعه ، فقد امتنع شاعرنا العزيز ، عن النزول عند إلحاحنا هذا ، بل اصرّ على عدم إجابة اي التماس كان يتعلق بهذا الموضوع . فكان من ثمّ ، اذا وقع في يدنا نسخة من الكتاب نبادر الى استعارتها الواحد من الاخر لنسخها او استظهارها ، حتى لتصبح هذه النسخة التي نتعاورها ممزقةً ملصقةً من كل الجهات ، في حين انها جد ثمينة .

ولكي نتعزى عن سكوت القرم ، من هذا القبيل ، التمسنا ان نبحث بجدٍ عن قصائد اخر له ظهرت تحت هذا العنوان الشامل (دفاتر الولد) . ثم وجدنا في المجلة الفينيقية التي أصدرها القرم في عام سنة ١٩١٩ انه نشر فيها لكل من الشعراء اللبنانيين في اللغة الفرنسية ، المعروفين والمجهولين اذ ذاك ، ولم ينشر له قصيدة واحدةقط، على حين ان أرفاقه في زمن التحصيل ما زالوا يتذكرون عدداً كبيراً من اشعاره الجميلة وينشدونه ، منذ سنة ١٩١٠ عند ما كان مؤلف الجبل الملهم المزمع ، في الخامسة عشرة من عمره ، وكنا من جهة اخرى ، نعلم ، منذ سنة ١٩٣٠ ان بعض مقاطع شعرية من (دفاتر الولد) نشرتها عدة جرائد ومجلات،في فرنسا ، وبلجكا ، واميركا ، ومصر ، وسوريا ، ولبنان ، لذلك تأهبنا لاصطياد هذه القصائد المتفرقة لنجعل منها مجموعة ، وقد عزمنا على اصدارها بعناية الاصدقاء الذين استحسنوا معنا (شاعر الجبل) لكن القرم قد عارضنا ، ايضاً ، برفضٍ تضارع حدته اعتذاراته اللطيفة .

وما هي إلاّ فترةٌ حتى نشرت كتابي الشعري الاول ، بعنوان (الشفاه البيضاء) وقدّمته للقرم ، على اني بينما كنت أرقب طبعه في مطبعة جريدة (الاوريان) وجدت بين ملفات الاوراق المهملة في مستودع المطبعة رزمة صغيرة محكمة الربط استرعت انتباهي اليها ، قد كتب عليها هذه العبارة . (بعض قصائد للسيد قرم ظهرت في جريدة (الاوريان) خلال سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣١) فاخذت من كل طبعة منها عدداً ، واذا بين يدي مجموعة من ثمانِ عشرة قصيدة ، كنت واصحابي نتغنى بها (الليالي الساهرة) منشدينها في هدوء وعذوبة صيف لبنان . هذه القصائد المنقذة من مستودعات المطابع قد صادفت رواجاً عظيماً ، لانها حملت كلاً من الاصدقاء على طلب نسخة منها ، واذن فكان ان حلّ بي تجربة قوية لم اتمكن من مقاومتها الا بابتياع كل الرزمة المذكورة ، من جريدة (الاوريان) وجمعها بهذا الكتيب .

على اني لم اترك على هذا الكتيب العنوان الشامل المذكور ، الذي عنون به شاعرنا كتاب (دفاتر الولد) ، لان ذلك لانه قد استعمل تعبير (ولد) بمعنى رحب عميق ، مما لا يتوافق تماماً مع هذه المقاطع المتجزئة التي جمعناها بهذا الكتيب . فكلمة « ولد » في عرف القرم ليس ، فقط ، اليافع ، او البالغ ، او الشيخ الذي اختبر الحياة ، بل هو الانسان بكامله ، الانسان الضعيف والقوي معاً ، الذي يمكث غير مستقر ، وغير مكتمل طالما هو في قيد الحياة بل طالما لم يدرك الله بعد ، على نور ما وراء الطبيعة . فالكائن البشري في اعتبار السيد قرم لا يستطيع ان يبلغ اشده وكماله ، الا متى ادرك الحقيقة الصرفة المعدة للمختارين . واذن فان النظرية الفلسفية بهذا العنوان الجميل لا توافق الا المؤلّف بكامله ، عندما يتلطف القرم وينشره ، اما بينما نحن بانتظار ذلك ، علينا ان نجد عنواناً اخر للكتاب ، لذلك عولنا ان نتبنى عنوان (ابن الجبل) للاعتبار الآتي : بينما كان احدنا ، ذات يوم ، يمتدح القرم لابتداعه الملحمة اللبنانية ، دعاه ابا الجبل ، فأجابه القرم منتفضاً : « ان رغبتي الشديدة ، هي بعكس ذلك ، بان ادعى « ابن الجبل » .

فبعد هذا الاعتراض من القرم ، رأينا ان لا احد في وطننا أولى من القرم باستحقاق هذا اللقب الشريف ، لذلك اذا عنونا الكتاب (بابن الجبل) نكون قد ارجعناه الى القرم نفسه .

الانسانيه

١

انا ولد لحوّا أُمّنا الاولى ، أتى شَفَعَا :
فقاينٌ انا المشؤومُ يغلي صدرُهُ كدرا
وما في الشرِّ من إغرا بشوقي العاهر استترا ،
وفي مجلى شبابي المرِّ بطشٌ يقحم السبعا .

. . .

وهابيلٌ انا ، يرنو بعين عذوبة الوهم
سناءٌ ناصعٌ بصفاء قلبٍ كالزاوردي ،
مثالُ عُلًى ، جنى ثمراً نضيجاً ، سالفَ العهدِ ،
لأول ميتةٍ ، بئس الحياةُ تمرٌ كالسهم ،

. . .

انا المذبوحُ هابيلٌ وقاينٌ انا الجاني ،
همـا الأخوان في ذاتي : فوحشيٌّ وروحاني ،
هما يتنازعان دمي بقلبي الغضّ فاضطربا ،
ولكن لا انا بهما ولا بي وحدةُ الفردِ ،
انا ضعف البنين لمن غدت في ضعفها عجبا .
انا البشريّةُ الجلّى بمن فيها ، انا وحدي !

اثنان قد وجدا في غرّةِ الدهرِ ،
من دون اضدادٍ او قاصِدِي شرِّ ،
لا ناسَ حولهما في فسحة القطر .
قد كان ملكهما في مطلق الامر ،
ما سوف يملكه نسلٌ بلا حصر :
قومٌ يزاحمهم قوم مدى العمر .
حازا بلا حربٍ نالا بلا ضُرّ :
حريّةَ المسعى ، دنيا بلا قصر ،
والصحّةَ الملأى من عفةٍ بكر .
الكل ملكهما ، مما غدا يجري :
في فسحة البحر ، والجوّ ، والبر ،
من كل ما يُجنى من مبسم الزهرِ ،
والزرع ، والاشجار الحلوة العطر ،
والمعدن الغالي ، والترب ، والصخر ،
والسهل ، والاجبالِ الشمّ ، والقعر ،
والانهر الزرقا ، خلواً من الكُدرِ ،
من منبع المجرى حتى عِدى البحر .
صنوان قد كانا ملءَ الدنى الغرّ

. . .

قاين مثالٌ في الشرّ هابيل مثالٌ في البرّ
لهما الافلاك برمتها : شمسٌ ، ظلٌ ، نورُ البدرِ
ونجوم الليل ببهجتها كمصابيحٍ فيه تسري ،
والارض بما في جعبتها : لبنٌ ، عسلٌ ، ماءٌ يجري ،
وربيع الكون مثال ربيعهما المخضوضر بالعمر .
لهما الإثراء ؛ وثمّةَ ما لوجود الفضّة من ذكر .
كان الاخوان على عِرْيٍ مَرِحين بلذّات الثّري ،
كانا والعلم شعارهما ؛ من دون عناءٍ بالفكر .
ملكان لواؤهما ببيما — الافراح خفوق كالنسرِ
وفضاءٌ ليس له حدٌّ ، فيه الخيرات بلا حصرِ ،
فتح الابواب امامهما للكسب ، فعاشا في يُسر .
فهما بكر الجنس البشري ، كانا عينَ الولد الحرّ
وإليهما الارض هما ، خلقا ، بالمنّةِ من رب الدهر ،
كمثال الله وصورته ؛ خُلق الاخوان بلا نكر .
والسعدُ بعينهما بادٍ يتلالا في بسم الثغرِ ،
سطّاعا ؛ بسّاما احلا من نورالشمس لدى الفجر ،
من اجل اللاشيء اختلفا ، من اجل دخانهما النذر ،
من محرقةٍ فضلت اخرى ، من محرقةٍ اصلُ الغدر ،
اردى قاين اخاهُ هابيلَ الثاني ؛ ياللشرّ !

لا خصمَ ، ولا ضدٌّ يسطو من غير شقائهما المرّ ،
لينازع شخصهما ملكَ — الدنيا السامي ، حتى الشبرِ !

. . .

من يُنكر اصلَ تحدُّرِهِ من ذيّاكَ الذنب الجاني ؟
من ذا لا يشعر في الاعماق بجرم ضحيّةِ عدوان ؟
خلد السفّاحُ بفعلته ، حقاً ، بخلود الاعوان .
والناس اليه قد نُسبوا بدمٍ يجري في الشريان ،
ودمُ الصدّيقِ مضى هدراً يطويه ليل الازمان ،
ولذاك نرى الاطهار مع الودعاء مُريدي الاحسانِ ،
شُذّاذاً في الدنيا ؛ وهمُ ؛ بنقاهم هابيلُ الثاني ،
بؤسا عُزلٌ ؛ وقد اضطربوا بإزاء الجدِّ الغضبانِ ،
جدٍّ باقٍ في دنيانا يزداد بنسل الانسانِ .

— ٣ —

يا إلهاً عينُه اليقظى على العالم المشجون من فرط العثور ،
ميلُهُ المكمدُ قد هدهدَهُ بين وحشيِّ الهيولى والضمير ،
أفسدت بلدانَنا اجمعَها سطوةُ الميلِ الى فعل الشرور
مثلَ اجيالٍ مضت في مهمَه ، عهدَعاش الناسُ مابين الصخور
انت نظّارٌ الى الفتكِ ، الى الحقدِ ، يجري بين طيّاتِ الصدور
رغم ما علّمنا الانجيلُ والشرعُ إخلاصاً على مرّ العصور ،
ومضى السّعيُ الى التّمدينِ لُغواً — وكنّا مثلما شاء الغرور ،

والدَّمُ الفاسد في الانسان ما زال يغلي بالمخازي ويفور ؛
نجنا من ذاتنا وامنُنْ علينا — بغسل القلب بالزوفى الطهور
قلبُك الحنَّانُ يهوانا فلا تبتئس وارفق وساعد ياغفور

. . .

صفائح

الامل الضائع

فلذةٌ حمراءُ من لحمٍ ودَمْ يُولَدُ الطفلُ يُعتِيهِ الألَمْ
باكياً ، مُغمَى عليه ، عارياً ، مطبقَ العينين ، لا سنٌ بفم
اصلعَ الرأس ، على الدنيا أطلّ ولا يدري بما فيها انتظم
مطبقَ الكفِّ بدا يُعلِنُنا ، أنه ، مستقبلَ الايام ، ضم
أملُ المستقبل الزاهي له ، وشباب مخصب ، من دون غم ،
وهيام ، وخيور جمّةٌ ؛ وهوىً في طيّة القلب اضطرم
يتراءى قابضاً ، واخيبتاه ، — عليها ، بيدٍ لم تستقم .
فاذا ما نبتت اسنانهُ ، بعد حينٍ ، نالها سوسُ الأرم ،
واعترى الجلدَ ذبول من جرا عضّةِ الدهر بنابٍ ، فاخترم .
بعد ان يفقد ما أمّله ، واخضرار العمر في الصدغ ارتسم
يرقد المغدور في ضجعته رقدةَ اللّحد باحشاء الظلم ،
فارغ الكفّين مما قد جنى ، باسطاً إياهما ، بسطاً أتمّ .

القسم

قسماً باللهِ ربّي ، دون حقدٍ وشغب .
لو تقاعدتُ عن الحرث بجدٍ ونصب ،
او تأخرتُ عن الزرع ولم أجنِ الثمر ،
وانا لم أبنِ فرني بيدي ، دون البشر ،
او جفتني الارض ، ظلماً ، وهي تزري بالجهاد ،
وبدت جدباء لا تُعطي غلالاً في الحصاد
او تراءت لي كنوداً لم يحننها الوفاء ،
واعتراني اليأس ، يوماً ، وهو قطّاعُ الرجاء ،
وانا ما اسطعتُ درس القمح زاداً للمعاد ،
وعجنت الطِّحْنَ خبزاً وانا ثبتُ الفؤاد ،
لأكلتُ الرملَ واستلذذتُ في لَوكِ المَدَر ؛
واذا قلَّ الثرى ، حيناً ، واشقاني الحجر ،
فأرومُ الموتَ جوعاً ، وانا غضّ العمر ،
لا ، ولا أرضى لنفسي ان يُمَنّيها البشر .

المنفى

لاسيفَ يحميني ، ولادرعٌ يقي ، ما من مِجَنٍّ او جوادٍ اسبق
قد جئت من وادٍ صغيرٍ ضائعٍ في جنةِ الدنيا ، بلادِ المشرقِ

بلد أضعتُ رسومَه من خاطري، وتركتُ أصحابي كِرامَ المعرَق
والاهلَ، والشمسَ التي، فصل الشتا، كالشمس في الصيف الجميل المشرق
وجَداولاً ثرثارةً في جريها، وسماءَ حسن كالمرافع في السرور،
وكواكبَ الزرقاء تسطعُ في الدجى وانا على سطحي يسامرني الحبور
والنورَ مع حسن الصفا، وعذوبةَ العيش الهني، وبكارةَ الاشياء،
ولسوف تدري النفسُ ماتركت غداً، في يوم أُشفى من غرور الداء
وبذاكَ أُدرك شرَّ غربٍ تافهٍ، فيه دفنتُ تعفُّفي وإبائي،
فأكون، ثمَّة، قد فهمتُ تمدناً، جهلَته نفسي، بعد جهد عنائي!

التمني

يا ليتني راعي بَهَمْ يرتادُ اغوارَ القمم
يتنسَّم الريحَ النقيَّةَ يرشفُ الماءَ الشَّبِم،
وطعامُهُ الخبزُ الذريَ إزاءَ أقطاعِ الغنم،
يرضى بها أهلاً واصحاباً له ترعى الذِمَم.

. . .

من حوله الغاباتُ بلدانَ التَّنَعُّمِ والسرور،
وله اللآلئُ واليواقيتُ النَّدى فوق الزهور.

. . .

خضرُ المروج فراشُهُ ولباسُهُ مِنَحُ الإله،
مستكفياً بجذائه ورِدائه من مقتناه.

لا يرتضي حبساً له ، الا مدى الكونِ البعيد ،
وبان يرى الجوَّ المديدَ صفاؤهُ ، الافقَ الوحيد ،
لا يعرف البشريَّةَ الوحشيَّةَ القبحى الصفات ،
بسوى عيون وحوشِ غابٍ داميات مرهبات ،
ونجيُّه اللذُّ الوحيد بفيهِ مزمار القصب
ليعيش ، فرداً ، مُعدَماً ، لا تاجراً يقنو الذهب .

النصيحه

عيناك شاردتانِ ، ما السرُّ ؟ وعلى جبينكَ يظهر الذعر !
فالحاجبانِ مقطّبانِ ، أمن شرٍّ دهاكَ فراعك الامر ؟
تتنفّسُ الصعداءَ في لَهَثٍ ، والريحُ تذري شعركَ الجعدي
وخطاك قد ضلّت بمشيتها ولأنتَ تبدو ناتئَ الصدر ،
عضلات جسمك قوّست ، وتُرى متأبطاً طِمراً على طِمر ،
والى الوغى ، بطلاً ركضتَ ، وقد أسرعتَ نحو طلائع الجند .
والآن تسرع بالهزيمة من خصمٍ يشدُّ عليك بالكرّ ،
في الامس طاردكَ الكلابُ وما ترجو ، غداً ، في زهرة العمر ؟
وغداً ينقّرك الغرابُ بما هو كالحسام المرهف الحدِّ .
فالموت حولك كامنٌ ابداً ، أنّى اتّجهتَ ، فانت للقبر ،
واذاً لما الوَجَلُ الشديدُ وما هذا الشحوبُ ، ووخزةُ الفكر ؟

وعلامَ إفراغُ الجهود وما ، هـذا الصراعُ وليس بالمجدي
هيَّا اعتزل ضوضا المدينـة فالضوضاء فيهـا السُّقْمُ والشرُّ
وانظر فكلٌ مقدَّر عَدَمٌ ، ويعود عُدْماً ما له ذكر .

الزاد الاخير

ترشَّفْ لازورديًّا طريًّا كماءٍ من معينٍ سلسبيلِ ،
ومصِّ الماسَ ، مصَّ ملبَّسات تذوب بفيكَ ، ماسَ هواً عليل .
اليك النورَ زاداً مستلَذًّا قُبيلَ هجوم شمسٍ للأفول .
سيسلبُكَ المسا هـذا الطعام اللذيذ ، فعبَّهُ قبلَ الأصيلِ .
كنوزُ الصبح كالاهراء ملأى بأنضج بُرِّ فسحات الحقول ،
فهيَّا اجمع سنابلَ من حصيدٍ لذيذٍ خبزُهُ بفم الأكول .
فمن لجج النَّضـار يذرُّ فجرٌ كأمثالٍ من الربِّ الجليل .
يردِّدُها على الانسان حرَّى باقوالٍ بها هَدْيُ السبيل .
أجل ، يتدفَّقُ الصبح انبلاجاً بنورٍ كاندفاقِ قِوى المَسيل
ألا فاغسل بآي النور نفساً يجدِّدها فتنشط للرحيل ،
الى يومٍ تلاقي الحتفَ ، حتماً ، يجرُّكَ عبرَ تيَّارٍ مهول ،
الى الشمس الجديدة ، حيث تبقى سعيداً ، طيلةَ الابد الطويل

الارتقاء

أحسستُ اني لستُ املك من عطايا الله شيًّا

مما يجود ، بلا انقطاعٍ ، في الحياة ، به ، عليا .
إن كان في طور الصِبا ، او كان في طور الهرم ،
حصصٌ بكلٍ منهما تُنبى بإفراط الكرم .

. . .

لا شيء : لا لِعَبي ، ولا ما كان قوتي ، في الحياة ،
لا ثوب يسترني ، ولا سعةُ المعيشة في السَّكَن ،
وكذا الرياش ، او العقارُ ، وما حَوَى كونٌ هِبَات ،
ما إن شعرتُ بانها مُلكي ، بها قلبي اطمأن .

. . .

بشريعتي ، يستلزم الشيءُ الخسيسُ ، من الامور ،
جهداً مريراً واسعاً ، لكنها الدنيا غرور !
ولذا يكلِّفني الحصولُ على الرغيف اليابس
اضعاف أكلافِ المليكِ لرَمِ قصرٍ دارسِ .

. . .

انا واحدٌ ممن تداعوا للحفاظ على العرين ،
ممن تكدُّهُمُ الحياةُ بغيرِ صخبٍ ، او أنين ،
من يأكلون الخبزَ ، معجوناً بأعواقِ الجبين ،
من يُضرمون بقلبهم ، نارَ العبادَةِ كلَّ حين .

. . .

وأحسُّ ان الضِدَّ : من حقٍ وبطلٍ يزهقُ ،

فأل وشؤم ممحض ، خير وشرّ يُرهق ،
عِبَرٌ تُرى عَبْرَ الرُّؤَى بين الاصابع تَزلق ،
مما يؤكد لي بانّ تملكي لا يصدق !

. . .

والمرء تُرهبه الصراحةُ رغمَ بطلانِ الحياة
بل يرهب الزلفى اليها والتَّعرفَ كالمماتِ ،
ولقد يفضّلُ ان يخدِّرَ حسَّهُ متناسيا ...
حتى يُرى ، في دهره ، أعمى اصمَّ مقاسيا ...

. . .

لا شيءَ يستثني الفناء من الوجود الدائبِ ،
مما يُرى بين الورى ، غيرَ اكتمال الواجب :
ان يفتح الانسان في البلوى ، على الألَم الشديد ،
عَيني ضميرٍ لا يزعزعه القنوط او الوعيد ،
كالمبضع القاسي يُزيل من الجراحات الصديد .

. . .

ماذا يروّي شوقنا مما يصير بذا الوجود ؟
أنتاجُنا العقلي وهو لقاحُ فعلِ الكبرياء ؟
أم شغلُ أيدينا ، وما زلنا يكددنا العناء ؟
فلسوف يخطئُه الزمان فيضمحلُّ ولا يفيد !

. . .

ولسوف لا تبقى الدُّنى وكنوزُها رهنَ البشر،
عبثاً نحاول ملكها، وهي المتاع المستعار،
والحب انّ اسرَ الفتاة بحيث يعجزها الفرار،
امست تهمّكها الأُمومة، دون سأم او ضجر.

. . .

ها انَّ سلسلة القرابة حلّها كف القدَر،
والدهر نازعنا دمَ الحبِ الذي فينا ازدهر،
وربيعُنا العذبُ الجميلُ بزهرهِ، هجَر القلوب،
فالأهلُ في الاجداث، والابناء في العيش الرطيب.

. . .

هم اهلنا، دمُهم جرى بعروقنا، جرياً سخين.
ولقد تجمَّدَ فيهمِ، مذ قرَّس الاعضا المنون،
فنرى ذوي الرَّحمِ القريبِ، ولحدهم بجوارنا،
متباعدين، بقَدْرِ ما يُمحَونَ من افكارنا.

. . .

ابناؤُنا من لم تزل بلُهاثهم لهثاتُنا،
يترَجفُونَ بحضننا تحميهمِ لحظاتُنا،
حتى اذا ما أوشكوا ان يكبروا او يطفروا،
عمدوا الى الافلات منا قصدَ ان يتحرَّروا.

. . .

ولسوف يسلبنا هُمُ ، بالرغم منا ، ذا الوجود ،
كالموت أردى اهلنا ، مستترفاً مهج الكبود ،
ولذا حريٌّ ان نصدّقَ عارفينَ بالامتحان ،
ان انخداع القلب يكثر فيه ، ما كثر الحنان !

. . .

فالكلُّ يخدعنا قِلىً ، بل نحن نخدع نفسَنا ،
فكأنما الدنيا نسيج والخداع سَدَى النسيج ،
وضلالُنا يستكرهُ الحزنَ المضرَّمَ بالأجيج ،
وسرورُهُ بغروره ، في ما يشوش حِسَّنا .

. . .

وشواعري المُغرَى بها الكونُ الفسيحُ الى السماك ،
تُصلي نقاء تدينُي وعبادتي الحرَّى ، عراك ،
لِتجدَّ في طلب المخازي والذنوب ، بلا خَجَل ،
مثلَ الكلاب يجدّ هذا إثرا تلك ، بلا وَجَل .

. . .

ولقد أحسُّ بانها ، وهي المروِّعةُ الفؤاد ،
ليست بملكي ، لا ، ولا هي تحت حكمي العادلِ
وكأنَّ قلبي ، وهو مُضنى في الجنون الخابل ،
فَرٌّ أبى ملكيَّتي ، فهوى الفرار من الجهاد .

. . .

وبانَ كُنْهَ حقيقتي ، ودليلَها فكري الفخور ،
إن في الهلوع ، او السكون ، اذا دعت حال الظهور ،
يبدو كأني ليس لي ، والهفتي ، فيهِ نصيب ،
اذ ينثني متردِّداً في سرِّهِ هـذا الغريب ،

. . . .

ولسوف يشمل مقلتيَّ الدودُ في بطن الثرى ،
بعد انتشائهما برأى اللازورديّ الجميل ،
وقوامُ جسمي النابهِ المتطيِّب الغض الجليل ،
رَهنُ النتانةِ والسماجة مُنتهى كلّ الورى .

. . . .

ومتى غدوت بحفرةٍ فيها الرجاسة والفساد
تمسي فنوني مثل عظمي كلها ، حتما ، رماد
وهناك لا يبقى بها شيء حلمت به هنا
ابداً ! سوى نفسي ولي بخلاصها كل المنى

. . . .

واذا توهمَّ بعضُنا الإفلات من حكم القدر
هو جاهل ، كالمبتغي ايقافَ تيار النَّهر .
ما انعمُ الدنيا لنا الا امتحان في الاجل .
فمن استطاع تجرُّداً منها فذاك هو البطل .

. . . .

فخلاصُنا لما يكن حَرْداً على نعم الاله ،
بالرغم من ضعف الطبيعة – لا وحقِّ ذُرى علاه !
ما كان بغضاً للملا ، ما كان كرهاً للحياة ،
كلاّ ! ولا موتاً بطيئاً قبل ميعاد الممات .

. . .

مع انه ، لا عالمٌ أو واهمٌ ، او شاعرٌ ،
او فيلسوفٌ او نبيٌّ – او حكيمٌ ماهر ،
أبدى كلاماً ، او انار – الفهمَ في لغز العليّ ،
في الحب والموت الذريعِ – لذاكَ لمّا ينجلِ .

. . .

ولانه ، والهفتي ، مذ كان عالمُنا الغرور ،
كنا ، وما زلنا ، نسير بغير رشدٍ في المسير ،
في عبرِ واديه السحيقِ مكدّدين حياتنا ،
نتلمّسُ المرسى الذي ، نُلقي به مرساتنا .

. . .

وخلاصُنا هو ان نحوز – الجرأةَ العليا الطهور .
واذا عرفنا بطلَ دنيانا عملنا المستطاع ،
او إن تبيّنَ شرُّنا نسطوا عليه بلا انقطاع ،
ونخالف المرمى المعيب ولا نحيد عن المصير

. . .

هو ان نرى الإنذارَ مرسوماً على جبهاتنا ،
في لفظ (مانِ تقل فرِس) ليثيرنا وسط المآدب .
وبان نُمَرمِر جوعنا – المشتدَّ في سكراتنا ،
بل نزدري بجميع ما في الحظ من عِظَمِ المواهب

. . .

بل ندرك الخطبَ الجسيمَ ولا نفرَّ من القتال ،
بسرور قلبٍ هائلٍ ، هادٍ ، سكوتٍ في النضال ،
فإناقةٌ ، وطلاوةٌ ، طمعٌ بدا رحبَ المجال ،
وبساطةٌ تسمو بصاحبها الى أوجِ الكمال !

. . .

نشيد ابطال المحبة

ليست القوةُ ما تُنتجُها مبدعاتُ المرءِ في ما يبتدع ،
من مضامين الهيولى : كهرباءٍ – وغازٍ دفيتٍ ، وبخار ،
ومعدّاتٍ مكانيكيةٍ : مدفعٍ ، قنبلةٍ فيها الدمار ،
لا ، ولا في ما يبيع المرء او يشتريهِ من ثمينات السلع .

. . .

ليس اصحاب المقصّات ، ولا صاحبَ الكُلّاب ، ذا المقدرةِ
ليس حدّاداً على سندانه ، ليس من عالج بالمطرقةِ ،
ليس جبّاراً شديداً بطشُهُ ، ليس ذا حذقٍ ولا ذا سلطةِ

ليس في «الرديوم» والآلات او في الوفرِ من كنوز الفضة ،
او بما في الهند والصين من الناس ، او في الدين من اسلحة ،
انما القوة في (الروح) التي اضطرمت في الحب مثل الشعلة

. . .

قوة عزّت على الاشياء طراً كما عزّت على كل الورى .
انها الجرأةُ ، والاخلاصُ والعذرة الفُضلى ، حِسانُ الادبِ
عجن الله بها موسى الكليمَ — وشمشوناً ، وداود النبي ،
بل هي القوةُ في القلب الكبير — ، الذي في ذاته قد كفرا .

. . .

قوة اوحت الى (دانتي) الغِنا والى (ميكال) نَحتَ الحجرِ
رغم تقبيحهما ما في الملا ، وسُويدا رُسمَت في الخُلق .
فهي البرقُ سرى في رسلٍ وهي انفاسُ الملاك الاطهر ،
اي عذراء بريّاها ارتوت ، حبلت بابنٍ نبيلٍ أشرق .

. . .

قوة خبّبتِ الموتَ الى المرسلين الاتقياء الصالحين ،
في قرى مجهولةٍ حيث قضَوا ، ليبثّوا في الملا العِلمَ اليقين ،
انها معسول منّ سائغ ، جعل الاديانَ مشعالَ العصور ،
في دهاليز (بروما) قد بدت مهبط النُعمَى من الله القدير

. . .

وهي ما أوحت الى (راسين) ان ينشي عن مجد هذا العالم ،

وعن الإعجاب فيه ، والثناء عليه ، من مليكٍ حازم ،
جعلت (بسكال) ينفي فكره ليغذّي فيه ايماناً مكين ،
ويُلاشي ذاته ، حتى يُرى غارقاً في لجّة الدين المبين .

. . .

حرّكت رعيانَ إبلٍ سكنوا البيدَ ، في مجهولِ قُطر عربي ،
فمشوا تضرمهم نارُ الوغى ، حاملين السيفَ ، والقلب الابي
من حدود الكعبة العليا الى ملعب الاندلس المغترب .
من دمشق الشام حتى (فرانسة) ، من أقاصي الشرق ، حتى المغرب .

. . .

هي ما توحي لنا خوضَ الصعاب كما توحي لنا ضم الحبيب ،
فيها قد شُيّدت آثارُنا : بعلبكٌ ، بابلٌ ، بل تدمر ،
انها آونةٌ خالدةٌ ، بل هي القطرة من وهج اللهيب
بعثت بالفذّ (مرتالٍ) الذي أوقفَ الروّادَ : امرٌ يذكر

. . .

تقحم الاقدارَ جهراً مثلما يتصدّى الوغد للعذرا الطهور ،
وبرجلٍ من حديدٍ ترفس العائق الجبّارَ ، يهوي فيغور ،
هي من قد عبدت في ثورةٍ (شخص حمقا) للتمادي في الغرور
هي في الاعصاب رعدٌ صاعقٌ واهتزازٌ بين طيّات الصدور .

. . .

هاجمت (فرساي) حتى هدمت ذلك (البستيل) مرموق المقام ،

وَلَكَم من مضجعٍ قضّت، وكم ارهبت ذعراً قلوبَ الملكات
وكما يلعب في الكلّة طفلٌ كذا تلعب في هام العظام،
قوة هاجت رعاعاً في الملا فأنالوه الحقوق الدارسات.

. . .

هي اصواتُ أغاني الراقصين وانات صليل المجزرة،
تحمل الحمقى على حط الملوك عن الاعراش، ميراث الجدود
فكرةٌ قد حملت جيش الصليب الى القدس بايمانٍ وطيد،
دافعوا عنه قروناً، تارةً بصلاحٍ، تارةً بالمعثرة.

. . .

كيفما كانت تُرى قدسيةً او ترى كافرةً، او صالحة،
او ترى ظالمةً، عادلةً او ترى عاقلةً، او طالحه،
انها شرخ الشباب الأوحدِ الاحمس الوثاب، وقت النكبات
يشعر الكون بها من قوةٍ لم تزل فيه بصُلب العضلات،
وبها يُدرك حقاً، انه فوق ما فيه بدا من عظمات.

. . .

انها الوثبةُ في النفس الابيّةِ والسائلُ غيرُ المدركِ،
زلزل الارضَ بهولٍ، بل هي الكُنْهُ من أعلى اعالي الجَلدِ؛
بل هي البُركان في الداخل يُجلى غيوماً عن بساط الفلكِ
يُجمِدُ الماءَ صخوراً ويدقُّ الصخورَ الصمَّ دقّ الإثمِدِ.

. . .

منجنيق في حنايانا تُجدِّدُ ما أبلته فينا الحادثات .
هي في جزر ومدٍ ، لا ترى ، تلطم البحرَ فتمحو المنتجات
نفحةٌ سريّةٌ قدسيةٌ ، شغلها الشاغل فعلُ المعجزات ،
قد دعت ، يوماً ، لِعازاراً فلبّى نداها ، من وهادٍ فاغرات .

. . .

هي ما تلثم كفّ التضحياتِ التي قد مزّقت جسمانها .
وهي ما تهتزّ من رؤيتها زهرةً ، مهما ازدرينا شأنها .
وهي ما ترقد ، والوحدةَ في مرقد الابرار ، من دون شَغَبْ
وهي ما يعجز عن اشباعها كلُّ هذا الكون مما تطلب .

. . .

انها النّوةُ في عمقِ الكيانِ تُرى في خافِقَيهِ كامنه ،
بيضةُ الافراحِ تُدعى ، وتُسمَّى خُراجُ الغيظِ ، فينا راهنه ،
ذرّةُ البارود تُكنى ، وبها سرُّهُ ، بل سرُّ لألأِ المهاة ،
تجعل الاحمقَ في الناس أجلَّ من الناس ، وأسماهم صفات .

. . .

حبّةٌ تُنبتُ أجذالاً ، وبلُوطةٌ منها تذرُّ الشجره ،
تلهمُ الارضَ بما ترسله ، خفيةً فيها غصوناً ناميه ،
وعلى الايام يُعطي جزعُها مأكلاً للناس تلك الثمرة ،
جذعُها السبّاقُ في الاجواء ما بين اجواقِ الجذوعِ الساميه .

. . .

تجعل الكاهنَ ، حقاً ، كاهنا تجعل الانسانَ ، حقاً ، رجلا
تجعل البابا مثالاً في الكمال جديراً بانتقا هذا اللقب ،
والتزامِ الذودِ عن قطعانه ، غيرَ هيّابٍ ، اذا الذئبُ وثب ،
وبتجديد الصليبيّةِ حرباً لاجل السلم ، حفظاً الملا .

. . .

انها اجمل مما يتبودق في النار ، بسرّ الكيمياء .
هي ذاك السلسبيل اللذُّ طعماً وأنقى من نقاء الذهبِ .
نقطةُ المحورِ في النفس الابية ترقى في الملا نحو العلاء
بنظامٍ فاتَ (أرشيمادُساً ، وتلوراً) حفظُهُ في الكتبِ .

. . .

قوة القوات طراً ، دون أدنى جدالٍ ، بل منارُ المرصدِ .
انها الكبريتُ في لبِّ العظام ومشعالٌ يُضيء الظلمات .
انها في الدم شمسٌ ، بل هي القوة المفردة الجلّى الصفات ،
نستقيها من معين (الروح) أي من رضى اللهِ القديرِ الصمدِ .

. . .

هي لا غيرُ بذا عصر الشقا ، عصر موت الروح ، عصر العدم ،
تستطيع ، اليومَ ، ارجاعَ الحياة ونشرَ النور فوق القمم ،
اذ تنيلُ السوطَ من وجه الأُولى تاجروا بالمال بين الامم .

. . .

وحدها تقوى على كشح الشجون ونشرِ الرمز في سجن الفنون ،

وعلى إرجاع أسمى فكرةٍ ، تتلالا بين ايدي العالمين ،
وعلى حطم قيودٍ أوهنت ، طيلةَ الدهرِ ، قِوى المستعبدين

. . .

وحدها تقوى على شجب الشعوب التي قد أضرمت نارَ الحروب
وعلى حقر الغنى ، بل وعلى حبِّ ما في الفقر من بؤس مرير ،
وعلى إخجال ما يبدو لنا فاضلًا ، وهو خداع وغرور ،
وعلى إطفاء بركان الوغى ، بل على إنقاذِ اجواق الشعوب .

. . .

يا إلهي ! هاكَ عينيَّ اللتين هما رمزُ سناك الساطع ،
وفؤادي المنحني بين يديك خجولاً ، آملًا حسنَ الرضى ،
فامشِ في نفسي لتحييها أيا غايةَ النفس ، اذا العمر انقضى
لأكونَ الاهلَ ، لا غيرَ الجديرِ بلقياك المهيب الخاشع .

٢٤ ايار سنة ١٩٤٣

الباعوث

يا ربِ ! قبلَ تعرّفي المضني ، اليك ، لقد هويتُ ،
ولطالما ، في وهدةِ الموتِ الذريع ، قد ارتميتُ ؛
وكهيكلٍ ، عبثاً ، بناهُ الجهلُ من مَرمٍ أصمّ ؛
ومعارفي ، مهما ارتقتْ ، من دون عونكَ كالعدم ؛
ولقد بدا هرمي ، لقلبي ، حفرةً ، رهنَ الظُلَم !

. . .

قد طال ما حاولتُ حملي فوق ذُروة منكبي ،
اتسلّقُ الايامَ مُرقاة ، بدون تنكُّبِ ،
حتى لاجتاز الزمانَ ، محاولاً عبرَ القطوب ؛
لكن دمي المسجون ، رعباً ، في فضا سجنٍ رهيب ،
يبدو خنيقاً بي ، كما ، بخليّةِ النحل الهيُوب ؛

. . .

وخلاصُ نفسي مستحيل باعتمادي ذاتها ؛
عبثاً ، مضى كرّي الشديدُ على صعودِ فاتها ،
متعثّراً بتموّجات رمالِ مُعضَلَةِ الخلودْ ؛
ولذا تحوّلَ ما اعددتُ كبريائي من جهود ،
نطعاً لاعدامي ، فوا أسفي عليَّ ، مدى الوجود ؛

. . .

فمع الفراعنة الأُلى سبقوا العصور الغابرَهْ ،
أدركتُ ، عَبْرَ النيل ، ما خلفَ القبور الداثرَهْ ،
حُفَرٌ تغذّى اهلُها فيها ، وجُهزتِ الفناءْ ؛
لكن سمائي مجهلٌ أفريقيانيُّ الخلاءْ ،
وقوامُ آلهتي جسومُ بهائمٍ ، يا للبلاء ! !

. . .

شيّدتُ أعمدةً لآلهتي الجديرةِ ، في العِظَمْ ،
رَحبَ العراق ، وبابلٍ ، وفنيقيا ، مجدِ الامم ،
وشخصتُ في كبد السماء ، أُجيلُ فيه ، ناظري ،
متحرياً ، في الليل ، في البحر السحيق الزاخرِ ،
نجماً ، منبعَ النيلِ ، يجهل خَلقَ كونٍ عابرِ !

. . .

ومع الكليمِ ، ومَن تعبَّدَ — للاله الواحدِ ،
عيّدتُ ضِعفَ رجا بني يعقوب ، دون تناكدِ ؛
لكن كرهتُ تعصُّباً فيهم قسياً في النضالْ ،
بدليلِ ما قاسى بنو كنعان ، منهمُ ، في النكالْ ،
وبنو يهوذا خصّصوا بهمِ العليَّ ، بلا جدالْ !

. . .

في الغَنْجِ ، في صوفيَّـةِ — الهندِ ، اعتقدتُ ، بلا حَسَرْ ،
انني قبضت على الالوهةِ — زنبقاً فوق القَـذَرْ ،
مما بدا زهداً وحُلماً — فيهما طهر الجسدْ ؛
لكنَّ أَبْخرةً تعبّ ، — بها انحلالُ الروحِ جدّ ،
ليسَت حقيقتُها سوى (نزقانَ) مَوْما لم تَسُدْ !

. . .

حاولتُ ، في اليونان ، وضعَ — مهمَّةٍ ، قيدَ العمل :
رفع الخليقة كي تساوي قدرَ خالقها الاجلّ ،
فتناقصَ الازليّ ، ثمَّةَ ، في مِثالي الحاسرِ ،
ومضى يطاردُهُ القضاءُ المحتومُ ، شأنَ الصاغرِ ،
واذا به عابَ السما (وأُلِمبَ) ، يا لِلفاجرِ !!

. . .

فمن الجنونِ ، اذاً ، بأن أَبني الكمالَ المطلقا ،
مما بدا حولي بدنيا ما لها ، حتماً ، بقا ،
أو من عميق النفس ، وهي — الى الفناء ، غداً ، تُرَدّ ؛
فالحكمة المثلى الحنون — من العنايةِ تستَمَدّ ،
والاردنُ الخشّاعُ علّمني — مدَى مجدِ الصَّمَدْ !

. . .

إحدى قرى لبنان ، في ماضي العصور ، النّاصرهْ ،

فيها تأنّسَ ربُّنا ، عوناً لنا ، في الآخرهْ ؛
والنفس قد خرجت ، اذ اتّحدَت به ، من كورها ؛
والجنّةُ المفقودةُ ارتدّتْ – كتاب نشورها ؛
والى الدنى رجع السلام – تيمُّناً بمصيرهـا !

. . .

لا يدركُ المرءُ الضحى ، حيثُ اكتمال سروره ،
حتى يقرّ بأنـه غِرٌّ أسيرُ غروره ،
حتى يفتّشَ عن صمودٍ – في انكسارِ حـلّهُ ،
حتى يرودَ النبعَ حيثُ – اللهُ يروي غلّهُ ،
حتى يسمّرَهُ صليبُ – الربِ يعضد ذِلّهُ ؛

. . .

لا يستطيع ، الى التصعُّدِ – مسلكاً بصفاتـهِ ،
لكن بنعمةِ ربهِ العظمى – وفي بركاتـهِ ؛
أنّى له ان يرتقي والكل مدعاة الوَهَنْ ؟
إلاّ اذا امتزج العُلى بنجيعهِ ، وبه سَكَنْ ،
أو أضرمَ الفادي بهِ نارَ العبادة والفِطَنْ ؛

. . .

ليس انتقاصٌ في سموّ – الربّ إنْ هو في حلّ ؛
فلأنّه ، في كل شيءٍ – كائنٌ ، حتى النَّمُلْ ؛
حتى الهباءة ، وهو يرعاها بحبٍ مستمرّ ،

ولذا يجدّدُ خلقها ، في شكلها السامي البَهَرْ ،
ويضمُّ ، حتى خصمه – العاتي ، اليه ، في البشر ؛

. . .

يا ربِّ ! انجيلَ المحبَّة – واندفاق كُوى العلاء ؟
طوفانَ حلمٍ زاخرٍ ، سرَّ السَنى ، غزوَ السماء !
أُغزُ البسيطةَ مضرماً ، فيها ، المحبَّةَ والسرورْ !
حتى يمزّقَ شعبُها – الاكفانَ ، في يوم النشورْ !
ويُرنِم (الباعوث) في وَضحِ الغزالةِ ، للقدير !

٣٠ ت٢ سنة ١٩٤٤

DATE DUE

848.995:C811iA:c.1
القرم، شارل
ابن الجبل
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031881

A.U.B. LIBRARY

848.995:C811iA
القرم .
ابن الجبل .

848.995
C811iA

848.995
C811iA
c.1